

لفت الأنظار

إلى

حقيقة الإيثار

تقديم وتقريظ

محمد عيد عباسي

إعداد

جمال محمد بن إسماعيل بن عبدالله

دار الراية

للنشر والتوزيع



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لفت الأنظار
إلى
حقيقة الإيثار

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ

ح دار الراية للنشر والتوزيع ١٤١٧هـ.

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إسماعيل، جمال محمد

لفت الأنظار إلى حقيقة الإيثار – الرياض.

٧٨ص، ١٧×٢٤سم

ردمك ٧-٣٧-٦٦١-٩٩٦٠

١-الأخلاق الإسلامية أ- العنوان

ديوي ٢١٢ ١٧/٢٧٩٠

رقم الإيداع: ١٧/٢٧٩٠

ردمك: ٧-٣٧-٦٦١- ٩٩٦٠



الرياض: الربوة – طريق عمر بن عبدالعزيز – ☎ ٤٩١١٩٨٥/ فاكس ٤٩٣١٨٦٩

ص.ب. (٤٠١٢٤) الرياض (١١٤٩٩)

جـــدة: حي الجامعة – جنوب شارع باخشب ☎ ٦٨٨٥٧٤٩

تم الصف والإخراج الفني بدار الراية للنشر والتوزيع

لفت الأنظار

إلى

حقيقة الإيثار

تقديم وتقريظ

محمد عيد عباسي

إعداد

جمال محمد بن إسماعيل بن عبدالله

دار الراية
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذه الرسالة

أحمد الله تعالى على فضله ونعمه، وأشكره سبحانه على هدايته وإحسانه، وأصلي وأسلم على نبيه وخاتم رسله المبعوث رحمة للعالمين والمتمم لمكارم الأخلاق والهادي لأحسنها والمحذر من سيئها.

أما بعد...

فهذه رسالة كريمة تدعو إلى خلق كريم، دبجتها براعة أخ كريم تستحث المسلمين على التخلق بخلق عظيم من أخلاق الإسلام ذلك هو خلق الإيثار، وما أجمله من خلق يجعل الحياة سعيدة وطيبة رضية؛ ويقلب بيداء الحياة إلى واحة ندية، ويذلل صعبها ويهون مصابها، يشعر الإنسان بأن حوله أصحاب أوفياء، وأصدقاء أمناء يخلصون له في الحل والترحال، ويسارعون إلى معونته وإسعافه في الضيق والعسر، فيقدمون ويبذلون، دون ضنٍ ولا تردد، فيتعب واحدهم ليستريح إخوانه، ويحتاج ليستغنوا، ويشقى ليسعدوا، ومع ذلك فإنه يجد في هذا المتعة واللذة لعلمه بأن جزاءه عند الله عظيم ومكانته سامية، إذ يحظى برضوان الله، ويظفر بالاستظلال بظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله، فيؤثر ما عند الله على ما عند الناس، ويؤثر الثناء الطيب في الملأ الأعلى على الثناء الحسن في الملأ الأدنى.

إن من أعظم ما امتاز به الإسلام هذا الدين العظيم أنه دين شامل كامل لم يدع شاردة ولا واردة إلا هدى الناس فيها إلى أحسن السبل وأقوم الطرق، ولا غرابة في ذلك فهو شرع الخالق الخبير والعليم الحكيم **﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾** [١].

نعم لقد كان الإسلام عقيدة تصحح نظرة الناس إلى الحياة، وتنقذهم ومن سلطان الوهم والخرافة، كما كان عبادة تسمو بالنفس إلى الأفاق العلا وتصلها با لله تعالى، تستمد منه الهداية والعون، وتناجيه بخالص الخشوع والحب، كما كان نظاماً للحياة فريداً، نظم شؤونها، وأرشد إلى أحسن الحلول لمشاكلها، فقدم المنهج الأوفى الأكمل لإصلاح النفس الإنسانية، وإنهاض المجتمع وتقدمه، فأتحف البشرية بنماذج سامية فذة، كانت مثالاً في حسن الخلق، ونُبْل المقصد وشرف المحتد، وفازت بأعظم شهادة ألا وهي شهادة رب العالمين بأنها كانت **﴿خير أمة أخرجت للناس﴾** [٢] حتى اضطر الخصوم إلى الشهادة لها بأنها كانت أرحم من فتح، وأعدل من حكم، وأوفى من وعد، وأصدق من حدّث.

وكانت أخلاقهم نابعة من عقيدتهم، أصيلة ثابتة عامة لجميع الناس، ليست متكلفة ولا متصنعة، ولا خاصة بفئة دون فئة، وحتى المخالفين في الدين أمر ا لله عز وجل بالإحسان إليهم إذا كانوا ملتزمين بالنظام والطاعة ولا يقابلون المسلمين بالاعتداء والكيد، كما قال تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾** [٣].

---

(١) سورة الملك، آية ١٤.

(٢) سورة آل عمران، آية ١١٠.

(٣) سورة الممتحنة، آية ٨.

نعم لقد عرض الأخ الكاتب إلى خلق الإيثار فبين معناه العام والخاص، ووضح حقيقته، وذكر أمثلة عليه في الجاهلية والإسلام، ثم بين أنواعه وحكم الشرع فيها، ونماذج من إيثار سلفنا الصالح، لعل ذلك يكون دافعاً للمسلمين كي يحذوا حذوهم، ويسلكوا دربهم ويتشبهوا بهم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ∴ إن التشبه بالكرام فلاح

إن من المعلوم أن الأخلاق والطباع في أصلها موروثة من الوالدين وأصولهما القريبة والبعيدة، ولكن الله تعالى لم يجعل الإنسان أسيراً لا يستطيع الانفكاك منها، بل إنه سبحانه جعل في مقدور الإنسان تعديلها وتبديلها، وتلطيفها وتهذيبها، وذلك عن طريق الاكتساب والتعود والتأثر بالبيئة، ومخالطة الأصحاب، ومن هنا كانت مهمة المربين، وكان فضل علم التربية والتزكية، وفي هذا القول يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾ [1] وقال سبحانه: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ [2] أي دللنا الإنسان على طريق الخير وطريق الشر، وأمرناه بالخير، ونهيناه عن الشر، ووعدنا من ينقي نفسه من النقائص والمنكرات، ويحليها بالفضائل والمكرمات، بالنعيم والجنات، والفوز والكرامات. نعم إن بإمكان الإنسان أن يهذب طباعه ويغير أخلاقه، ولكن هذا يحتاج إلى مكابدة ومجاهدة، وإرادة وحزم، وجلد وصبر، وفي هذا يقول نبي الهدى والرحمة صلوات الله عليه: «**إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلّم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقَّه**» [3].

---

(١) سورة الشمس، آية ٧-١٠.

(٢) سورة البلد، آية ١٠.

(٣) رواه الخطيب في (التاريخ) وكذا ابن الجوزي في (العلل) كما رواه الطبراني والدارقطني وحسنه الألباني في (السلسلة الصحيحة برقم ٣٤٢).

والتحلم هو تكلف الحلم، وحمل النفس عليه، وكبح جماحها، وتعويدها على الصبر والعفو عند المقدرة، ونفس الإنسان تميل إلى السهولة، وتحب التخفف من التكاليف، وتشتهي التشفي من الخصم، والانتقام منه، وتهوى العلو والظهور والفخر والكبر، فمن يمنعها من ذلك فيكظم غيظها، ويضبط اندفاعها كان بطلاً حقاً، وفي هذا يقول النبي المصطفى والرسول المجتبى ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1]. وهذا هو مناط التكليف، وموضع الاختبار والابتلاء الإلهي للإنسان ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً**﴾[2] ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾[3].

فجزى الله تعالى أخي الأستاذ جمال خير الجزاء على رسالته القيمة هذه، فلقد أجاد فيها وأفاد، وعساه يتحفنا برسائل أخرى يكون لها أثر في إصلاح الأخلاق، وسمو المعاملة، ونفع الله بها، لتنشر في الناس شذيّ الصفات، وزكي الخلال، وصلى الله وسلم وبارك على من كان أحسن الناس خلقاً ومن قال: «**خير الناس أنفعهم للناس**»[4] والقائل: «**ألا أنبئكم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون**»[5]. والحمد لله رب العالمين.

كتبه

محمد عيد العباسي

---

(١) رواه الشيخان وأحمد.

(٢) سورة الكهف، آية ٨.

(٣) سورة الملك، آية ٢.

(٤) رواه القضاعي في (مسنده) والبيهقي في (شعبه) والطبراني في (معجمه) وحسنه أستاذنا الألباني في (صحيحته ٤٢٦).

(٥) رواه أحمد وابن حبان والترمذي وصححه الألباني في (الصحيحة ٧٩١).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله اللطيف الرؤوف المنَّان، الحليم الكريم الرحيم الرحمن، أحمده على الصفات العلى الحسان، وأشكره على نعمه السابغة وبالشكر يزيد العطاء والإحسان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الديَّان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالقرآن القائل: **«إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»** [١]. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم ما توالت الأزمان، وسلم تسليما.

أما بعد...

فإن الإيثار من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، وهو خلق الفضل في الإسلام، ولا يُدْرك هذا الخلق إلا إذا رُزق العبد قريحة وقَّادة، وطبيعة منقادة، إذا زجرها انزجرت وإذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين، وارتدى مع ذلك بعلم نافع وإيمان راسخ وصبر جميل.

---

(١) رواه البخاري في (الأدب المفرد) "٢٧٣" والإمام أحمد في مسنده (٣١٨/٢) من حديث أبي هريرة ﷺ وصححه الشيخ الألباني في (صحيح الأدب المفرد) "٢٠٧".

وإن المتأمل في حياتنا نحن المسلمين -في هذه العصور المتأخرة- يَلْحظُ تقصيراً شديداً في هذا الجانب السلوكي الخلقي من الناحيتين:

أ - **الناحية العلمية**: حيث تكون صورة هذا الخلق غير واضحة في الأذهان.

ب- **الناحية العملية**: خلو حياة الناس من الترجمة العملية لهذا الخلق. حتى أصبح من المعتاد أن نرى من أنفسنا هذا التقصير وذاك البعد عن منهج السلف الصالح في هذا الخلق. فلا نَعْجبُ كثيراً حين نرى الواحد منا يضرب في مناكب الأرض وللأثرة في نفسه إيحاءٌ شديد، أكثر تفكيره في نفسه وأقله في الآخرين. فأردت لفت أنظارنا إلى هذا الخلق المفتقد من حياتنا العلمية والعملية، فسطرت هذه الرسالة الموسومة بـ (**لفت الأنظار إلى حقيقة الإيثار**) لعلّي أبيّن فيها بعون الله وفضله ومنته حقيقة الإيثار وفضائله ومكانته في شريعتنا الغرّاء وأنواعه -ما يحمد منه وما يذم- وكيف يُكْتسب؟ وشيئاً من سيرة سلفنا الصالح فإنهم خير أنموذج يُحْتذى. فإذا ما تم لنا إدراك هذا الأمر وتمت لنا الإرادة القوية فسوف تختفي من حياتنا -إن شاء الله- الأثرة والأنانية ويحل محلها البذل والإيثار.

وإنني أشكر فضيلة الشيخ محمد عيد العباسي -جزاه الله خيراً- على إطلاعه على هذه الرسالة وموافقته تقريظها والتقديم لها، وأشكر الأخ الحبيب الأستاذ وائل بركات -مدير مكتبة الفردوس الإسلامية برفحاء- الذي أمدني بالمراجع العلمية التي كنت أحتاجها أثناء عملي في هذه الرسالة، كما لا يفوتني أن أشكر أخي الأكبر الأستاذ فتحي طه عبدالباقي والأخ الأستاذ

ناجي صابر المرسي على مـا قدَّمـا لي مـن عَـوْنٍ في سـبيل نشـرها وتوزيعهـا. جزى الله الجميع خيراً على ما قدموا وجعل كلَّ ذلك في ميزان حسناتهم.

والله عز وجل أرجو أن يكتب لها القبول الحسن، وأن يدخر لي ثوابها إلى يوم لقائه آمين.

كتبه

أبوعبدالله

جمال بن محمد بن إسماعيل

غفر الله له ولوالديه

وللمسلمين أجمعين

في ٥/١١/١٤١٥هـ

٥/٤/١٩٩٥م

الإيثار لُغَةً

يُسْتعار الأثر للفضل والإيثار للتفضل، ومنه آثَرْتُهُ وآثَره عليه: فضله. وفي التنزيل: ﴿لقد آثرك الله علينا﴾[١]. وأَثِرَ أن يفعل كذا أَثَراً وأَثَرَ وآثَرَ، كله: فَضَّل وقَدَّم. وآثَرْتُ فلاناً على نَفْسي: من الإيثار.

وقال الحطيئة يمدح عمر رضي الله عنه:

ما آثروك لها إذْ قَدَّمُوك لها ∴ لكن لأنفسهم كانت بها الإِثَرُ

أي الخِيَرة والإيثار، وكأن الإِثَرَ جمع الإِثْرَةَ وهي الأَثَرةَ وفي الحديث قال رسول الله ﷺ للأنصار: «إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً فاصبروا»[٢].

الأَثَرةَ، بفتح الهمزة والثاء: الاسم من آثَرَ يُؤْثِر إيثاراً إذا أعطى، أراد أنه يُسْتَأْثَرُ عليكم فيُفَضَّل غيرُكم في نصيبه من الفيء.

---

(١) سورة يوسف، آية ٩١.

(٢) رواه البخاري (٥/٥٩/ح٢٣٧٧) كتاب الشرب والمساقاة ومسلم (٣/١٤٧٤/ح١٨٤٥) كتاب الإمارة والإمام أحمد في مسنده (٣/١١١، ١٦٧) وذكره الشيخ الألباني في "صحيح النسائي" (٣/١٠٩٠/ح٤٩٧٦) وغيرهم.

فائدة: قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥/٩٥): "وفي الحديث فضيلة ظاهرة للأنصار لتوقفهم عن الاستئثار بشيء من الدنيا دون المهاجرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم كانوا ﴿ويؤثرون على أنفسهم...﴾ فحصلوا في الفضل على ثلاث مراتب: إيثارهم على أنفسهم، ومواساتهم لغيرهم، والاستئثار عليهم".

والاستئثار: الانفراد بالشيء، ومنه حديث عمر: فوا لله ما استأثِرُ بها عليكم ولا آخذُها دونكم، واستأثر ا لله فلانا وبفلان إذا مات، وهو ممن يُرْجَى له الجنة ورُجِيَ له الغفران. ورجُلٌ أَثِرٌ يستأثر على أصحابه [١].

الإيثار شَرْعاً

الإيثار: أن يُقَدِّم غيره على نفسه في النفع له والدفع عنه وهو النهاية في الأُخُوَّة [٢].

وقال القرطبي رحمه ا لله [٣]: هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة قال تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة...**﴾، أي يؤثرون على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم لاعن غنى بل مع احتياجهم إليها. وقال رحمه ا لله: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال [٤].

ومن الأمثال السائرة [٥]: والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٤/٧،٨) والقاموس المحيط (ص٤٣٦) والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص٩، ص١٠).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص٥٩) حققه وقَدَّم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٨-١٩) للقرطبي بتصرف يسير.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٢٠) للقرطبي بتصرف يسير.

(٥) قلت: بل هو عجز بيت في صدره: يجود بالنفس إذا ضن البخيل بها.

وقال صاحب (المنازل) رحمه الله: [١] "الإيثار: تخصيص واختيار، والأثرة: تحسن طوعا. وتصح كرها".

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في مدارجه [٢]: "فرَّق الشيخ رحمه الله بين (الإيثار) و (الأثرة)" وجعل (الإيثار) اختياراً و (الأثرة) منقسمة إلى اختيارية واضطرارية. فالإيثار هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك، وهذا لا يكون إلا اختياراً. وأما (الأثرة) فهي استئثار صاحب الشيء به عليك، وحوزه لنفسه دونك، فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه إلا إذا كانت طوعاً مثل أن يقدر على مجاذبته فلا يفعل، وإن لم يقدر على ذلك كانت أثرة كره.

حقيقة الإيثار

أنه خلق يبعث على تعظيم الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم على بعض فالمسلم يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار.

والإيثار ضد الشح، فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر من أجاب داعي الجود، وقد اختص الله عز وجل به الإنسان المسلم لتعلو همته وتسمو إليه روحه فيسعى في طلبه وإن عظمت فيه المحنة.

---

(١) هو شيخ الإسلام إسماعيل الهروي وكتابه هذا "منازل السائرين" ص٥٧.

(٢) أي مدارج السالكين الذي شرح فيه ابن القيم رحمه الله كتاب "منازل السائرين" انظره (٢/٢٨٢-٢٨٣).

قال ابن القيم رحمه الله[١]: "فالدين كله والمعاملة في الإيثار، فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره به على نفسك، حتى إن من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذْ لو لم يكن محتاجاً إليه لكان بذله سخاءً وكرماً، وهذا يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه سبحانه فإنه الغني الحميد. وقيل: من آثر الله على غيره آثره الله على غيره. والفرق بين الإيثار والأثرة أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصاصك به على الغير، وفي الحديث: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عُسْرِنا ويُسْرِنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا**»[٢].

وإذا كان الإيثار متعلقاً بالله جل وعلا وهو أجلّها وأشرفها وأفضلها فترى المؤثر يؤثر رضاه جل في علاه على رضا غيره وحبه سبحانه على حب غيره، وعلامة تحقق ذلك في العبد شيئان[٣]:

أحدهما: فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه.

الثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه.

(١) طريق الهجرتين، ص٣٠٥.

(٢) رواه البخاري (١٣/٧/ح٧٠٥٦) كتاب الفتن ومسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة والإمام أحمد في مسنده (٥/٣١٨، ٣٢١) وغيرهم.

(٣) طريق الهجرتين، ص٣٠٨.

الإيثار من مكارم الأخلاق عند العرب:

(قال في "اللمعات": كانت العرب أحسن الأمم أخلاقاً، ولكنهم قد ضلوا بالكفر عن كثير منها، وخلطوا بها أحكام الجاهلية، فبعث ﷺ ليتمم محاسن الأخلاق) [١] أ.هـ.

وكان الإيثار من هذه الأخلاق التي تغنى بها العرب:

يقول أحدهم [٢] مفتخراً بإيثاره:

أبيت خميص البطن عريان طاويا	وأوثر بالزاد الرفيقَ على نفسي
وأمنحه فرشي وأفترش الثرى	وأجعل ستر الليل من دونه لبسي
حذار أحاديث المحافل في غدٍ	إذا ضمني يوماً إلى صدره رَمسْي [٣]

فهو يجوع ويطعم غيره ويفترش التراب ويعطي فراشه لغيره، وهذا كله خوفاً من المذمة واللوم وحرصاً على الشهرة وبعد الصيت.

وحاتم الطائي أحد أجواد الجاهلية والذي يُضرب به المثل في الكرم، نرى منه عجباً حيث تقص علينا زوجته نوَّار أمراً عجباً فيتجلى فيه الإيثار حينما قيل لها حد ثينا عن حاتم فقالت: "كل أمره كان عجباً أصابتنا سنة حصت [٤] كل شيء فاقشعرت لها الأرض واغبرت لها السماء وضنت

---

(١) فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد (١/٣٧٠) نقلاً عن رسالة "الحياء خلق الإسلام" لأخينا الفاضل الشيخ محمد أحمد إسماعيل (ص١٠).

(٢) المُسْتطرف من كل فنٍ مُسْتظرف لشهاب الدين محمد الأبشيهي (١/١٦٣).

(٣) رَمَسَ: الميت: رَمْساً: دفنه وسوَّى عليه الأرض، والرَمْسُ: القبر مستوياً على وجه الأرض. المعجم الوسيط (١/٣٧٢).

(٤) حصت: أي أخذت وجرفت.

المراضع على أولادها وراحت الإبـل حدبا [١] حدابير مـا تبـض [٢] بقطـرة، وحلقت المال وإنا لفي ليلـة صنّبر [٣] بعيـدة مـا بـين الطرفـين إذ تضـاغى [٤] الأصبية من الجوع عبدا لله وعدي وسفانة فوا لله إن وجدنـا شـيئاً نعللهـم بـه فقام إلى أحد الصبيان فحمله وقمت إلى الصبيـة فعلّلتهـا فـوا لله إن سـكتا إلا بعد هدأة من الليل ثم عدنا إلى الصبي الآخر فعللناه حتى سكت، وما كاد ثم افترشنا قطيفة لنا شامية ذات خمل، فأضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهـو في حجرة والصبيان بيننا ثم أقبل عليَّ يعللني لأنـام، وعرفـت مـا يريـد فتنـاومت فقال: مالك أنمت؟ فسكتُ فقال: ما أراها إلا قد نامت ومـا بـي نـوم، فلمـا ادلهم الليل وتهورت النجوم [٥] وهدأت الأصوات وسكنت الرجل إذ جـانب البيت قد رفع، فقال: من هذا؟ فولى حتى قلت إذاً قد أسحرنا أو كدنـا عـاد فقال: من هذا؟ قالت: جارتك فلانة يا أبا عدي ما وجدت على أحدٍ معـوِّلا غيرك أتيتك من عند أصبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع، قـال: أعجليهـم عليَّ قالت النـوَّار: فوثبـت فقلـت مـاذا صنعـت اضطجـع وا لله لقـد تضـاغى أصبيتك فما وجدت ما تعللهم فكيف بهـذه وبولدهـا فقـال: اسـكتي فـوا لله لأشبعنك إن شاء ا لله، قالت: فأقبلت تحمل اثنين وتمشي جنبتيها أربعة كأنهـا نعامة حولها رئالها [٦] فقام إلى فرسه فوجأ بحربته في لبته ثم قدح زنده وأورى

---

(١) حَدَبَاً: يقـال دابـة حَدْبـاءُ: بـدت عظـام ظهرهـا، وسـنة حدبـاءُ: شـديدة. المعجـم الوسـيط (١٥٩/١).

(٢) ما تبض: يقال: وما تبض يده بخير وما يَبِضُّ بعطاء وابتض الشيء: استأصله والبُضَاضَةُ: البقيـة القليلة من الماء. المعجم الوسيط (٦٠/١).

(٣) صنّبر: باردة.

(٤) تضاغى: تصايح.

(٥) تهورت النجوم: غابت.

(٦) الرئال: ولد النعامة.

ناره، ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ثم دفع المدية إلى المرأة ثم قال: دونك ثم قال: ابعثي صبيانك فبعثتهم ثم قال سوءة أتأكلون شيئاً دون أهل الصرم فجعل يطوف فيهم حتى هبوا وأقبلوا عليه والتفع في ثوبه ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا والله ما ذاق مزعة (١) وإنه لأحوجهم إليه فأصبحنا وما على الأرض منه إلا عظم وحافر" (٢).

فقد استطاع العربي القديم أن يصل بفطرته إلى الجانب الأخلاقي للإيثار، ويدرك أثر البذل في إشاعة روح المحبة والمودة بين الناس.

الإيثار في الإسلام

أما في الإسلام فقد رفع الإسلام شأن الإيثار، وحض عليه، وامتدح أهله في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فلقد أبرز القرآن الكريم خلق الإيثار في الأنصار ﷺ، الذين قدَّموا المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ (٣).

وبلغ من تقدير الإسلام خلق الإيثار وتعظيمه أن الرب تبارك وتعالى ضحك من فعل الأنصاري الذي أكرم ضيف رسول الله ﷺ وبات هو وزوجته طاويين، فعن أبي هريرة ﷺ قال: "أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال النبي

---

(١) بضم الميم وسكون الزاي: القطعة من اللحم. (عن القاموس).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٩٨/٢).

(٣) سورة الحشر، آية ٩.

ﷺ ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت والله ما عندي إلا قوت الصبية قال فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم وتعالي فأطفئي السرج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: "لقد عجب الله عز وجل -أو ضحك-[1] من فلان وفلانة" وأنزل الله تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾[2].

---

(١) تنبيه: لم يذكر البخاري يرحمه الله تأويل الضحك بالرحمة كما يظن البعض وإنما الذي أوَّله بالرضا هو الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ١٥٠ ط المكتبة السلفية) (مناقب الأنصار) والحافظ رحمه الله متأثر بمذهب الأشاعرة فلا عبرة بقوله في هذا. مناقب الأنصار).

فالضحك من صفات الله الثابتة له سبحانه بالسنة وإجماع السلف فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وهو ضحك حقيقي يليق بالله تعالى، والعجب أيضاً من صفات الله الثابتة له سبحانه بالكتاب والسنة وإجماع السلف فيجب إثباته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وهو عجب حقيقي يليق بالله تعالى.

(٢) سورة الحشر، آية ٩. أما الحديث فقد رواه البخاري (٤٨٨٩) في كتاب التفسير ومسلم (٢٠٥٤) في كتاب الأشربة باب إكرام الضيف وغيرهما.

حكم الإيثار في الإسلام

كره النبي ﷺ الإيثار لمن لم يثق منه بالصبر على الفقر وخشي أن يتعرض للمسألة إذا فقد ما ينفقه ولذلك قال النبي ﷺ: **«يأتيني أحدهم بجميع ما يملك فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس إنما الصدقة عن ظهر غنى»** [(١)]. أما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على النفس فلم يكونوا بهذه الصفة بل كانوا كما قال الله تعالى ﴿**والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس**﴾ [(٢)]، فكان الإيثار منهم أفضل من الإمساك والإمساك ممن لا يصبر ويتعرض للمسألة أولى من الإيثار [(٣)].

---

(١) أخرجه أبوداود (١٦٧٣) من حديث جابر بن عبدالله قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذْ جاءه رجل بمثل بيضة من ذهب فقال: يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن، فقال مثل ذلك فأعرض عنه، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله ﷺ، فحذفه بها، فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته، فقال رسول الله ﷺ: **«يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس خيرُ الصدقة ما كان عن ظهر غنى»** والحاكم (٤١٣/١) وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وقوله "يستكف الناس" معناه يتعرض للصدقة، وهو أن يأخذها ببطن كفه، يقال: تكفَّف الرجل واستكفَّ إذا فعل ذلك.

فائدة: وفي الحديث من الفقه: "أن الاختيار للمرء أن يستبقي لنفسه قوتاً، وأن لا ينخلع من ملكه أجمع مرة واحدة، لما يُخاف عليه من فتنة الفقر، وشدة نزاع النفس إلى ما خرج من يده، فيندم، فيذهب ماله، ويبطل أجره، ويصير كَلاًّ على الناس" مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري (٢٥٣/٢).

(٢) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٤٣٤/٣-٤٣٥) باختصار وتصرف.

وقال ابن القيم رحمه الله في "الزاد" (١): "إن النبي ﷺ عامل كُلَّ واحدٍ ممن أراد الصدقة بماله بما يعلم من حاله، فمكَّن أبا بكر الصديق من إخراج ماله كُلِّه، وقال: "ماذا أبقيت لأهلك؟" قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله (٢)، فلم ينكر عليه (٣)، وأقرَّ عمر على الصدقة بِشَطْرِ ماله، ومنع صاحب الصُّرة من التصدق بها (٤)، وقال لكعب: **«أمسك عليك بعض مالك»** (٥).

وهنا يبرز سؤال هام: هل يصح الإيثار من كل إنسان ولو كان ذا عيال أو تلزمه نفقة غيره أو لا؟ وما علاقته مع قوله تعالى: ﴿**ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو**﴾ (٦).

---

(١) زاد المعاد (٣/٥٨٩-٥٩٠).

(٢) أخرجه أبوداود (١٦٧٨) والترمذي (٣٦٧٦) والدارمي (١/٣٩١-٣٩٢) من حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال مثله، وأتى أبوبكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً. وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم (١/٤١٤) ووافقه الذهبي.

(٣) لم ينكر النبي ﷺ على أبي بكر ﷺ خروجه من ماله أجمع، لما علمه من صحة نيته، وقوة يقينه، ولم يخف عليه الفتنة، كما خافها على الرجل الذي رَدَّ عليه الذهب. انظر معالم السنن للخطابي (٢/٢٥٤).

(٤) منعه النبي ﷺ من التصدق بها خوفاً عليه من الفقر وعدم الصبر كما أشار إلى هذا الإمام ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (٣/٥٨٩).

(٥) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٨/١٩٢-١٩٣/ح٤٦٧٦) كتاب (التفسير) ومسلم (١٩١٨) كتاب (التوبة وقبولها وسعة رحمه الله عز وجل وغير ذلك) وغيرهما.

(٦) سورة البقرة، آية ٢١٩. والمراد بالعفو: الزائد على قدر الحاجة التي لابد منها على أصح التفسيرات، وهو مذهب الجمهور. أضواء البيان للشنقيطي رحمه الله (٨/٧٤).

قال الشنقيطي رحمه الله: "الظاهر في الجواب والله تعالى أعلم هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالاً، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعاً، وذلك إذا كانت على المنفق نفقات واجبة كنفقة الزوجات ونحوها، فتبرع بالإنفاق في غير واجب، وترك الفرض لقوله ﷺ: **«ابدأ بمن تعول»**[1]، وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله، ويرجع إلى الناس يسألهم مالهم، فلا يجوز له ذلك، والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة، وكان واثقاً من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال" [2] ا.هـ.

أنــواع الإيثــار

اعلم أخا الإيمان: أن الإيثار على ضربين:

أحدهما: محمود ومطلوب.

والثاني: مذموم وغير مطلوب.

الأول: الإيثار المحمود.

صاحب هذا النوع من الإيثار أثنى عليه ربه جل في علاه فقال: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾. فهو محمود عند الله وعند الناس، حيث يجزل الله له في العطاء ويكرمه في الدارين، فيكون له الذكر الحسن في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، فالفلاح والنجاح لمن

(١) رواه البخاري (٩/٤١٠/ح٥٣٥٦) كتاب النفقات باب وجوب النفقة على الأهل والعيال بلفظ: **«خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول»**.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٨/٧٦).

يلتزم بهذا الإيثار وكيف لا يلتزم به المسلم وهو يعلم أن هذا السلوك مرضيٌّ عند خالقه سبحانه وتعالى؟! ومن أمثلة هذا النوع:

أ- إيثار رضا الله تعالى على رضا غيره.

وهو أَجَلُّ وأَفضلُ أنواع الإيثار، حيث يتعلق بالخالق جل في علاه، فترى العبد يؤثر رضا مولاه سبحانه على رضا غيره، ويؤثر حبه على حب غيره، ويؤثر خوفه ورجاءه على خوف غيره ورجائه، ويؤثر الذل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتودد له على بذل ذلك لغيره، وكذلك يؤثر الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره، وكيف لا يكون ذلك من المسلم وهو يعلم أنه لا صلاح للنفس ولا نجاة لها من عذاب الله إلا بالتزام هذا النوع من الإيثار، فتجده أشد الناس حبّاً لله قال تعالى: **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حُبّاً لله﴾** [١].

وكلما كان سلطان المحبة أقوى كان هذا الإيثار أتم وفي مثل هذا قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع [٢]

فالمحبة الصادقة تدعوه دائماً إلى إيثار محبوبه، وتجده يتقلب في عبادته بين الخوف والرجاء قال تعالى: **﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾** [٣]، وقال تعالى: **﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو**

---

(١) سورة البقرة، آية ١٦٥.

(٢) طريق الهجرتين، ص٣٠٤.

(٣) سورة الإسراء، آية ٥٧.

رحمة ربه﴾ (١)، فهو بذلك يجمع بين الحب والخوف والرجاء (٢)، وهي العبادة الحقة التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله وحده، وصرفها لغيره شرك به سبحانه وتعالى.

وإليك نماذج حيَّة تنطبق على هذا النوع من الإيثار منها:

١- إقدام إبراهيم خليل الرحمن ﷺ عل ذبح ولده إيثاراً لمحبة خليله على محبته لولده، فنسخ الله ذلك عنه -أي ذبح ولده- وفداه بالذبح العظيم؛ لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسدة، فنسخ في حقه، وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة (٣).

٢- اختيار يوسف ﷺ السجن على الوقوع في الزنى كما حكى الله عنه في كتابه العزيز حيث قال جل شأنه: **﴿قال رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾** (٤).

ويُفصِّل ابن القيم رحمه الله في هذه القضية في كتابه القيم "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي" (٥)، فيقول: "أخبر الله سبحانه وتعالى عن

(١) سورة الزمر ، آية ٩.

(٢) فمن عبدا لله بالحب وحده فهو زنديق ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد. انظر شرح الطحاوية - تخريج الشيخ الألباني (ص٣٧٨). وأكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة المحبة، فالمحبة هي المركب والرجاء حاد والخوف سائق والله الموصل بمنه وكرمه.

(٣) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية لابن أبي العز الحنفي (١/٣٨٨-٣٨٩) باختصار وتصرف.

(٤) سورة يوسف، آية ٣٣.

(٥) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم (٢٤٨-٢٥١) باختصار.

عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلاَّ من صبَّره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشاب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتى له في وطنه بين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا أبية.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلَّقت الأبواب وغَيَّبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد وطول السرار، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السرار بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، فاستعان هو با لله عليهن فقال **﴿والا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين﴾** [1].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغَّار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل غاية ما قابلها به أن قال ليوسف **﴿أعرض عن هذا﴾** وللمرأة **﴿استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾** وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة. ومع هذه الدواعي كلها فقد آثر مرضاة ا لله وخوفه" ا.هـ.

٣- الصحابة رضوان ا لله عليهم آثروا فراق نفوسهم لأجل مخالفتها للخالق سبحانه وتعالى، ففي الصحيح [2] عن أبي هريرة ﷺ قال:

---

(١) سورة يوسف، آية ٣٣.

(٢) رواه البخاري (٦٨٢٥) كتاب الحدود، ومسلم (١١٠٢) كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنا.

«أتى رسول الله ﷺ رجل من الناس وهو في المسجد فناداه: يا رسول الله إني زنيت -يريد نفسه- فأعرض عنه النبي ﷺ فتنحى لشق وجهه الذي أعرض قبله فقال: يا رسول الله إني زنيت، فأعرض عنه، فجاء لشق وجه النبي ﷺ الذي أعرض عنه، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبي ﷺ فقال: أبك جنون؟ قال: لا يا رسول الله، فقال أحصنت؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: اذهبوا فارجموه».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في قوله (زنيت يريد نفسه) أي أنه لم يجيء مُسْتفتياً لنفسه ولا لغيره وإنما مقراً بالزنى ليفعل معه ما يجب عليه شرعاً[1].

٤- كان الشافعي رحمه الله قد آخى محمد بن عبدالحكم، وكان يُقرِّبه ويقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات منها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبدا لله، فاستشرف له محمد بن عبدالحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي: سبحان الله أيُشَكُّ في هذا؟ أبويعقوب البويطي فانكسر له محمد، ومال أصحابه إلى البويطي، مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي لله وللمسلمين، وترك المداهنة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله [2].

---

(١) فتح الباري (١٢/١٣٩-١٤٠).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/١٧١).

ب- إيثار الهدى والدين على ما سواه.

كان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو ربه بالثبات على الهدى والإيمان فيقول: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»** [١].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "مقلب القلوب: معناه تقليب قلب عبده عن إيثار الإيمان إلى إيثار الكفر وعكسه" [٢].

وقال صاحب تحفة الأحوذي [٣]: («**يا مقلب القلوب**»: أي مصرفها تارة إلى الطاعة وتارة إلى المعصية وتارة إلى الحضرة وتارة إلى الغفلة و «**ثبت قلبي على دينك**»: اجعله ثابتاً على دينك غير مائل عن الدين القويم والصراط المستقيم".

وقال الراغب: تقليب الشيء تغييره من حال إلى حال والتقليب التصرف وتقليب الله القلوب والبصائر صرفها من رأي إلى رأي [٤].

وانظر معي إلى بعض من النماذج الصالحة التي حققت هذا النوع من الإيثار في حياتها وفازت برضوان الله مثل:

١- سحرة فرعون وقد جاء بهم فرعون ليكيدوا لموسى ﷺ فإذا بهم يلقون سجداً مذعنين لرب موسى وهارون فيهددهم فرعون بالعذاب والنكال فيجيبونه بالإيمان الصادق لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب "الإيمان" (٥٥) وقال محققه: العلامة الشيخ الألباني: "هذا إسناد صحيح على شرط مسلم"، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٥٧) والترمذي (٢٢٢٦-تحفة) وصححه الشيخ الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (٥٢٧).

(٢) فتح الباري (١١/٥٢٢).

(٣) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٦/٢٩١).

(٤) فتح الباري (١٣/٣٨٩).

قال تعالى: ﴿**قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى**﴾(١).

قال أبو حيَّان (٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿**قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا**﴾: أي لن نختار اتباعك وكوننا من حزبك وسلامتنا من عذابك على ما جاءنا من البينات وهي المعجزة التي أتتنا وعلمنا صحتها وإن كانت البينات جاءت لهم ولغيرهم لأنهم كانوا أعرف بالسحر من غيرهم وقد علموا أن ما جاء به موسى ليس بسحر فكانوا على جلية من العلم بالمعجز، وغيرهم يقلدهم في ذلك وأيضاً فكانوا هم الذين حصل لهم النفع بها فكانت بينات واضحة في حقهم والواو في ﴿**والذي فطرنا**﴾ واو عطف على ما جاءنا أي وعلى الذي فطرنا لما لاحت لهم حجة الله في المعجزة بذؤابها.

وقال الحافظ ابن كثير (٣) في تفسيرها: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿**والذي فطرنا**﴾ يحتمل أن يكون قسماً ويحتمل أن يكون معطوفاً على البينات، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدي خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت.

وقال رحمه الله (٤) في قوله تعالى: ﴿**فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا**﴾ أي فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، إنما لك تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال ونحن قد رغبنا في دار القرار.

---

(١) سورة طه، آية ٧١، ٧٢.

(٢) البحر المحيط لأبي حيَّان (٦/٢٦١).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/١٦٧).

(٤) المرجع السابق.

وقال رحمه الله [١] في قوله تعالى: ﴿**إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر**﴾، أي ما كان منا من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

٢- آسية بنت مزاحم زوجة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه عن طلب الهدى والإيمان وقد حكىٰ الله تعالى عنها في كتابه العزيز فقال جل شأنه: ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين**﴾ [٢].

عن هشام الدستوائي قال: حدثنا القاسم ابن أبي بَزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون، فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، فلما آتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في السماء، فمضت على قولها، فانتزع الله روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح [٣].

٣- ماشطة بنت فرعون: عن عبدالله ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت عليَّ رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلت: وما شأنها؟ قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذْ سقطتْ المدْرَى من يديها،**

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة التحريم، آية ١١.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١٢/١٦٢).

فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟! قالت: لا، ولكن ربي وربُّ أبيك اللهُ، قالت: أخُبْره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة، وإن لكِ ربّاً غيري؟ قالت: نعم، ربي وربُّك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأُحميتْ، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فأُلقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مُرْضَع، وكأنها تقاعست من أجله، قال: يا أُمَّهْ اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت، قال: قال ابن عباس: تكلم أربعة صغار: عيسى ابنُ مريم عليه السلام، وصاحب جُرَيْج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابن فرعون» [(١)].

جـ- إيثار الآخرة على الدنيا.

قد كثر في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة الإشارة إلى مدح الزهد في الدنيا وذم الرغبة فيها ولفت الانتباه إلى ثواب الآخرة وما فيها من سعادة لمن عمل لها حساباً، ففي القرآن الكريم لا تكاد تُذْكر آية فيها ذكر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٩٥-٢٩٦/ح٢٨٢٢) وقال محققه العلاّمة أحمد شاكر رحمه الله: "إسناده صحيح، أبوعمر الضرير: هو حفص بن عمر البصري، وهو ثقة، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبوحاتم: "صدوق صالح الحديث، عامة أحاديثه محفوظة". والحديث في مجمع الزوائد (١/٦٥) وقال: "رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط". وفات الحافظ الهيثمي أن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل اختلاطه. وذكره ابن كثير في التفسير (٥/١٢٧-١٢٨) من رواية البيهقي من طريق عفان عن حماد بن سلمة، وقال: "إسناده لا بأس به، ولم يخرجوه". فلعله لم يره في المسند، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/١٥٠) ونسبه أيضاً للنسائي وابن مردويه، وصحح إسناده" ا.هـ.

الدنيا إلا ويرشد إلى الأنفع والأفضل وهي الآخرة فيذكر الداء والدواء معاً فالداء هو الغرور "دار الدنيا" والدواء هو المسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه، فمن تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر.

قال تعالى: ﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى**﴾ (١)، قال الحافظ ابن كثير (٢) في تفسير قوله تعالى ﴿**والآخرة خير وأبقى**﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا فانية والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد".

وتأمل دعوة مؤمن آل فرعون قومه إلى الزهد في الدنيا التي قد آثروها على الآخرة، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى ﷺ، فقال: ﴿**يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع**﴾ (٣)، أي قليلة زائلة فانية عن قريب وتضمحل، ﴿**وإن الآخرة هي دار القرار**﴾ (٤)، أي الدار التي لا زوال عنها ولا ظعن عنها إلى غيرها بل إما نعيم وإما جحيم.

وقال تعالى: ﴿**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً**﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿**تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة**﴾ (٦)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمات التي تدعونا إلى مثل هذا الزهد.

---

(١) سورة الأعلى، آية ١٦، ١٧.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥٣٥).

(٣) سورة غافر، آية ٣٩.

(٤) سورة غافر، آية ٣٩.

(٥) سورة النساء، آية ٧٧.

(٦) سورة الأنفال، آية ٦٧.

وفي السنة النبوية المطهرة ورد الأمر بالزهد في الدنيا تصريحاً، فقد قال النبي ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك**» [١]، وقال ﷺ: «**من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى**» [٢]. وقال ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**» [٣].

ولا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين كما قال ابن القيم رحمه الله في "فوائده" [٤]:

الأول: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخِسّتها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفكُّ من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها.

---

(١) رواه الحاكم (٣١٣/٤) وصححه الشيخ الألباني في "صحيح ابن ماجه" (٣٣١٠) والصحيحة (٩٤٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤١٢/٤) وذكره الهيثمي في :المجمع" (٢٤٩/١٠) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات، قلت: ضعفه الألباني في (ضعيف الجامع ٥٣٧٠).

(٣) رواه مسلم (٥٥/١٧) الرقاق وقال النووي: ومعنى الدنيا خضرة يحتمل أن المراد بها شيئان: أحدهما حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدنيا. والثاني: سرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين.

(٤) الفوائد لابن القيم (١٧٦-١٧٨) باختصار.

الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا فهي كما قال سبحانه ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ [١]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تأمل في هذين الأمرين وأحسن النظر فيهما هداه ذلك لإيثار الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، وأكبر عون له في تحقيق ذلك، النظر في حال الرسول ﷺ وسيرته هو وأصحابه من نبذهم لها وراء ظهورهم، وصرفهم عنها قلوبهم، واطراحهم لها، فهم لم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها وعدُّوها سجناً لا جَنَّة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردَّها، وفاضت على أصحابه، فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل. ا.هـ.

ويكفينا في بيان زهد النبي ﷺ أنه أخبر عن حاله في الدنيا فقال: **«مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها»** [٢].

---

(١) سورة الأعلى، آية ١٧.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٣-تحفة) الزهد وأحمد (٣٩١/١) والحاكم (٣٠١/٤) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة بشاهده رقم (٤٣٩).

ونصح ﷺ عبدا الله بن عمر رضي ا الله عنهما فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» (١). والغريب لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلها له شأن وللناس شأن.

وبيَّن لنا ﷺ حقيقة الدنيا فعن سهل بن سعد قال: كنا مع رسول ا الله ﷺ بذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلةٍ رجلها فقال: «**أترون هذه هينة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها قطرة أبداً**» (٢).

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال، قال رسول ا الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمِّ فلينظر بم يرجع**» (٣).

فانظر إلى حياته ﷺ كيف كانت؟ـ كانت حياته ﷺ كلها رغبة في الآخرة وزهداً في الدنيا فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: (رأيت رسول ا الله ﷺ يظل اليوم يتلوى لا يجد من الدقل ما يملأ بطنه) (٤).

---

(١) رواه البخاري (١١/٢٣٧/ح٦٤١٦) كتاب الرقاق، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٤،٤١).

(٢) صحيح ابن ماجه (٢/٣٩٤/ح٣٣١٨) والصحيحة (٦٨٦، ٢٤٨٢) للشيخ الألباني حفظه ا الله تعالى.

(٣) رواه مسلم (١٨/٩٣) الجنة وصفة نعيمها، والترمذي (٢٤٢٥-تحفة) الزهد، وصحيح ابن ماجه (٣٣١٦).

(٤) رواه مسلم (١٨/١٠٩) والترمذي (٢٤٧٧-تحفة) الزهد، والدقل هو رديء التمر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما شبع آل محمدٍ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبِض رسول الله ﷺ)[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: (لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات ولم يأكل خبزاً مرققاً حتى مات)[٢].

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: (والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة فما كان يُعيشُكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منايح فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه)[٣].

---

(١) رواه البخاري (١١/٢٩٧) كتاب الرقاق ومسلم (١٨/١٠٥، ١٠٦) والترمذي (٢٤٦٢-تحفة) الزهد.

فائدة هامة: استشكل بعض الناس كون النبي ﷺ وأصحابه كانوا يطوون الأيام جوعاً مع ما ثبت أنه كان يرفع لأهله قوت سنة، وأنه قسم بين أربعة أنفس ألف بعير مما أفاء الله عليه، وأنه ساق في عمرته مائة بدنة فنحرها وأطعمها المساكين، وأنه أمر لأعرابي بقطيع من الغنم وغير ذلك مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وغيرهم مع بذلهم أنفسهم وأموالهم بين يديه، وقد أمر بالصدقة فجاء أبوبكر بماله وعمر بنصفه، وحث على تجهيز جيش العُسْرة فجهزهم عثمان بألف بعير إلى غير ذلك، والجواب أن ذلك كان منهم في حالة دون حالة لا لعوز وضيق بل تارة للإيثار وتارة لكراهة الشبع ولكثرة الأكل. قاله الطبري كما في فتح الباري (١١/٢٩٧).

(٢) رواه البخاري (١١/٢٧٨/ح٦٤٥٠) كتاب الرقاق، والترمذي (٢٤٦٨-تحفة) الزهد.

فائدة هامة: تركه ﷺ الأكل على الخوان وأكل المرقق إنما هو لدفع طيبات الدنيا اختياراً لطيبات الحياة الدائمة، والمال إنما يرغب فيه ليستعان به على الآخرة فلم يحتج النبي ﷺ إلى المال من هذا الوجه، وحاصله أن الخبر لا يدل على تفضيل الفقر على الغنى بل يدل على فضل القناعة والكفاف وعدم التبسط في ملاذ الدنيا. قاله ابن بطال في الفتح (١١/٢٨٤-٢٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (١١/٢٨٧/٦٤٥٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٠٧٠) كتاب الزهد والرقائق واللفظ له.

فهذا عن طعامه ﷺ أما عن ثيابه فعن أبي بردة بن أبي موسى رضي الله عنه قال: أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساءً مُلَبَّداً وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين [(١)].

أما عن فراشه ﷺ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً حشوه ليفاً [(٢)].

ولم يخير رسول الله ﷺ نساءه إلا بين الدنيا والآخرة فاخترن الآخرة، فعن ابن شهاب قال أخبرني أبوسلمة بن عبدالرحمن أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: "لما أُمِرَ رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: إني ذاكرٌ لكِ أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمِري أبويك. قالت: وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال إن الله جل ثناؤه قال ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها**....-إلى- **أجراً عظيما**﴾ قالت فقلت: ففي أيِّ هذا أستأمِرُ أبويَّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلتُ" [(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٥٧/١٤) وقوله "ملبداً" أي مرقعاً.

(٢) رواه البخاري (٢٨٧/١١/ح٦٤٥٦) كتاب الرقاق ومسلم (١٣٥٤) كتاب اللباس والزينة واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٣٨٠/٨/ح٤٧٨٦) كتاب التفسير ومسلم (٨٥٥) كتاب الطلاق، قال الماوردي: "اختلف هل كان التخيير بين الدنيا والآخرة أو بين الطلاق والإقامة عنده؟ على قولين للعلماء أشبههما بقول الشافعي الثاني ثم قال: إنه الصحيح. وكذا قال القرطبي: اختلف هل كان في البقاء والطلاق أو كان بين الدنيا والآخرة. والذي يظهر الجمع بين القولين؛ لأن أحد الأمرين ملزوم للآخر، وكأنهن خيرن بين الدنيا فيطلقهن وبين الآخرة فيمسكهن، وهو مقتضى سياق الآية، ثم ظهر لي -أي الحافظ ابن حجر رحمه الله- أن محل القولين هل فوض إليهن الطلاق أم لا؟ ولهذا أخرج أحمد عن علي قال: "لم يخير رسول الله ﷺ نساءه إلا بين الدنيا والآخرة" ا.هـ. فتح الباري (٣٨١/٨).

ونقتطف لك من سير السلف الصالح ما يدلنا على مدى زهدهم في الدنيا:

١- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "الناس طالبان يَطْلُبان، فطالب يطلب الدنيا، فارفضوها في نحره، فإنه ربما أدرك الذي يطلبه منها، فهلك بما أصاب منها، وطالب يطلب الآخرة، فإذا رأيتم طالباً يطلب الآخرة فنافسوه فيها"[١].

٢- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدةٍ منهما بُنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل"[٢].

٣- وقال ضرار بن حمزة في وصفه -أي وصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه-: "كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه يعجبه من اللباس ما خَشُنَ، ومن الطعام ما جشب[٣]، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدأنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، ولا نبتديه تعظمة، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لرأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه[٤]، وغارت نجومه، وقد مَثُلَ في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا ألي تعرضت أم لي تشوقت؟ هيهات غُرِّي غَيْري، قد

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص٨٨.

(٢) فتح الباري (٢٣٩/١١) كتاب الرقاق.

(٣) جشب، جَشْبا: غلظ وخشن. المعجم الوسيط (١٢٣/١).

(٤) أسْجَفَ الليل: أظلم والسُجْفَةُ: الساعة من الليل وجمعها سُجَفٌ. المعجم الوسيط (٤١٧/١).

بتتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق"[(١)].

٤- وعن محمد بن سيرين قال: "كنا عند أبي هريرة ﷺ وعليه ثوبان ممشقان من كتان فمخط في أحدهما ثم قال: بخ بخ يتمخط أبوهريرة في الكتان لقد رأيتني وإني لأَخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ وحجرة عائشة من الجوع مغشياً علي فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي، يرى أن بي الجنون وما هو إلا الجوع"[(٢)].

٥- ودخل أبوالدرداء ﷺ الشام فقال: يا أهل الشام، اسمعوا قول أخ ناصح، فاجتمعوا عليه، فقال: مالي أراكم تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون؟ إن الذين كانوا قبلكم بنوا مَشِيداً وأمَّلوا بعيداً، وجمعوا كثيراً، فأصبح أملُهم غروراً، وجمعهم ثُبوراً، ومساكنهم قبوراً"[(٣)].

٦- وكتب ﷺ إلى بعض إخوانه أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله فإنك إذا فعلت ذلك أحبك الله لرغبتك فيما عنده وأحبك الناس لتركك لهم دنياهم والسلام[(٤)].

٧- وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: "من أراد الآخرة أضر بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة، يا قوم فأُضروا بالفاني للباقي"[(٥)].

---

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/٤٤٢-٤٤٥) نقلاً عن مقدمة الأخ أحمد فريد في تحقيقه للزهد والرقائق لابن المبارك (١/٣٢-٣٣).

(٢) رواه البخاري (١٣/٣١٦/ح٧٣٢٤) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة والترمذي (٢٤٧٢- تحفة) الزهد.

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص٨٨.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (٧/٣٨١/ح١٠٦٦٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (١/٤٩٦) وذكره الهيثمي في "المجمع" (١٠/٢٤٩) وقال: "رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير فيس".

٨- وعن زياد بن ماهك قال: "كان شداد بن أوس يقول: إنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه، ولن تروا من الشر إلا أسبابه، الخير كله بحذافيره في الجنة، والشر بحذافيره في النار، وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، ولكلٍ بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا" [١].

٩- وعن عبدالرحمن بن يزيد عن عبدا لله بن مسعود ﵁ قال: "أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول ا لله ﷺ وهم كانوا أفضل منكم فقيل بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم[٢].

١٠- وروى القرطبي عن مالك بن دينار قوله: "لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب والدنيا من خزف يفنى [٣].

وتأمل معي مدى خشية سلفنا الصالح ومراقبتهم لله عز وجل تجد عجباً.

فعن عطاء الخراساني أنه كان يقول: إني لا أوصيكم بدنياكم، أنتم بها مستَوْصَوْن ، وأنتم عليها حراص، وإنما أوصيكم بآخرتكم فخذوا من دار الفناء لدار البقاء، واجعلوا الدنيا كشيء فارقتموه، فوا لله لتفارُقُنها، واجعلوا الموت كشيء ذقتموه، فوا لله لتذوقُنَّه، واجعلوا الآخرة كشيء نزلتموه، فوا لله

---

(١) صفة الصفوة (٣١٨/١).

(٢) صفة الصفوة (١٨٠/١).

(٣) أضواء البيان (١٨١/٩).

لتنزلُنَّها، وهي دار الناس كلهم ليس من الناس أحد يخرج لسفر إلا أخذ له أهبته، فمن أخذ لسفره الذي يصلحه اغتبط، ومن خرج إلى سفر لم يأخذ له أهبته نَدِم فإذا ضَحِيَ لم يجد ظلاً، وإذا ظمئ لم يجد ماءً يتروى به، وإنما سفر الدنيا منقطع، وأكيس الناس من قام يتجهز لسفر لا ينقطع [١]

وعن قبيصة بن قيس العنبري قال: كان الضحاك بن مزاحم إذا أمسى بكى فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي [٢].

وعن كنانة بن جبلة السلمي قال: قال بكر بن عبدالله: إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقتُه إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضلٌ أُخِذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا ذنب أحدثتُه [٣].

ورُويَ عن المرُّوذي، قال: قلت لأحمد: كيف أصبحت؟ قال: كيف أصبح مَن ربُّه يطالبه بأداء الفرائض، ونبيهُ يطالبه بأداء السنة، والملكان يطلُبانه بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يُطالبه بالفحشاء، وملك الموت يراقب قبض روحه، وعياله يُطالبونه بالنفقة؟! [٤].

---

(١) صفة الصفوة (٤/١٠١).

(٢) صفة الصفوة (٤/١٠٠).

(٣) صفة الصفوة (٣/١٣٨)

(٤) سير أعلام النبلاء (١١/٢٢٧).

وحكى القاضي حسين عن القفَّال أستاذه أنه كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء حالة الدرس، ثم يرفع رأسه ويقول: ما أغفلنا عما يُراد بنا [(١)].

وعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فُضِّل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنَّا لنصلي، ولئن كان يصوم إنَّا لنصوم، وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنَّا لنحج، قال فكنَّا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلةً نتعشى في بيت إذْ طَفِئ السراج فقام بعضنا فأخذ السراج (وخرج يستصبح فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج) [(٢)]، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فُضِّل هذا الرجل علينا، ولعله حين فَقَد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة[(٣)].

فالخشية والزهد في الدنيا والمراقبة منهج حياتهم، وهي دافعهم لإيثار الآخرة فهم يعلمون أن من آثر الآخرة وعمل لها غَالِبٌ على من آثر الدنيا وظاهرٌ عليه كما صرح الله تعالى بذلك في قوله جل شأنه: ﴿**زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ [(٤)]، فقدوتهم سَيِّدُ الزُهَّاد والعُبَّاد ﷺ، فلذا شَّمروا عن ساعدي الجد، وطلقوا الدنيا، واتخذوا صالح الأعمال سُفُناً للعبور إلى الآخرة، وكانوا أحق بها وأهلها.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/٤٠٧).

(٢) أي يبحث عما يوقد به المصباح.

(٣) صفة الصفوة (٤/٩٧).

(٤) سورة البقرة، آية ٢١٢.

د- إيثار الأخ أخاه على نفسه في فضول الدنيا.

فالأخ يقدم أخاه على نفسه في مصالحه كأن يطعمه ويجوع، ويرويه ويعطش، بل قد يموت في سبيل حياته، وليست هذه بدعاً من القول، بل هي حقيقة واقعة، وقد بلغ إليها الأنصار رضوان الله عليهم بما لم تشهد البشرية له نظيراً.

فالمسلم الذي تشبعت روحه بمعاني الإيثار وانطبعت فيه نفسه بطابع هذا الخلق الجميل فهو دائماً يتمثل قوله تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ (١).

ويترسم خطى النبي الكريم ﷺ من خلال السنة النبوية الصحيحة، فقد كان النبي ﷺ شديد الإيثار، حتى أشفق عليه أصحابه من شدة إيثاره ففي الصحيح (٢) عن سهل بن سعد قال: "جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببُردة فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شملة، فقال سهل هي شملة منسوجة فيها حاشيتها - فقالت يا رسول الله، أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فأكسنيها. فقال: نعم، فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه. فقال: رجوت بَركَتها حين لبسها النبي ﷺ لعلّي أكفن فيها".

---

(١) سورة الحشر، آية ٩.

(٢) رواه البخاري (١٠/٤٧٠-٤٧١/ح٦٠٣٦) كتاب (الأدب) باب (حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل).

وعن أنس قال: "كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزعَ أهل المدينة ذات ليلة، فاطلق الناسُ قِبلَ الصوت، فاستقبلهم النبيُ ﷺ وقد سبقَ الناس إلى الصوت وهو يقول: لم تُراعوا؛ لم تراعوا وهو على فرس لأبي طلحة عُري ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: لقد وجدتُه بحراً، أو إنه لبحر (١)".

فقد كان ﷺ خير قدوة لأصحابه في الإيثار وحب الخير ذلك الإيثار الذي دفعه ﷺ إلى الخروج وحده ليلاً ليستكشف الخبر فلم يجد ما يخاف منه فرجع يسكنهم. وقوله "لم تراعوا" هي كلمة تقال عند تسكين الروع تأنيساً، وإظهاراً للرفق بالمخاطب (٢).

فبهذا السلوك القويم غرس النبي ﷺ في قلب المسلم الإيثار فزالت منه الأثرة والأنانية، ومحت المحبة ظلام البغض من القلب، فلذلك تجده متى رأى محلاً للإيثار آثر فيه أخاه على نفسه وهذي بعض من آيات إيثار المسلم نذكرها لقوم يعقلون:

١- نام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراش النبي ﷺ وتسجَّى ببرده ﷺ الحضرمي الأخضر ليلة الهجرة ولا يدري متى تتخطفه الأيدي منه لترمي به إلى المتعطشين للدماء المتربصين برسول الله ﷺ ليبطشوا به وهو بذلك يضرب أروع مثلٍ في التضحية والفداء فيؤثر رسول الله ﷺ بالحياة ويجود بنفسه رضي الله عنه وأرضاه (٣).

---

(١) رواه البخاري (١٠/٤٧٠/ح٦٠٣٣) كتاب (الأدب) باب (حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل).

(٢) فتح الباري (١٠/٤٧٢).

(٣) الرحيق المختوم (ص١٨٢) وهي مشهورة في كتب السير و لم نذكر تفاصيل القصة بل ذكرنا ما يناسب المقام باختصار وتصرف شديدين.

٢- ولما انتهى رسول الله ﷺ وصاحبه إلى الغار وهما في طريق الهجرة قال أبوبكر ﷺ: "والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه في حجره ونام، فَلُدِغَ أبوبكر ﷺ في رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لُدِغْتُ، فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده [(١)]. لله درُّك يا أبا بكر على هذا الإيثار وعلى هذه الصحبة الكريمة رضي الله عنك وأرضاك.

٣- كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها صائمة وليس عندها سوى قرص من الشعير وجاء سائل فقالت لبريرة: ادفعي إليه ما عندك، فقالت لها: ليس إلا ما ستفطرين عليه، فقالت لها: ادفعيه إليه، ولما جاء المغرب أهدى إليهم رجل شاة بقرامها [(٢)] فقالت لبريرة: كلي هذا خير من قرصك [(٣)].

٤- استشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه، أُتي عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال:

(١) الرحيق المختوم، (ص١٨٣، ١٨٤).

(٢) والقرام: هو ما كانت العرب تفعله إذا أرادو شواء شاة طلوها من الخارج بالعجين حفظاً لها من رماد الجمر. أضواء البيان (٨/٧٢).

(٣) المرجع السابق (٨/٧٢).

ابدأ بهذا ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم [١].

٥- قصة أبي طلحة الأنصاري المروية في الصحيحين الذي آثر ضيف رسول الله ﷺ بقوته وقوت صبيانه وقال له رسول الله ﷺ: لقد عجب الله من صنيعكم الليلة بضيفكم ونزلت آية ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ [٢].

٦- عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «**لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع**» [٣].

٧- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "أُهدي لرجل من أصحاب النبي ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا قال: فبعث إليه فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول ونزلت ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ... الآية**﴾ [٤].

٨- عن مسعر قال: شوى نافع بن جبير دجاجة فجاء سائل فأعطاها إياه فقال له إنسان في ذلك فقال: إني أبغي ما هو خير منها [٥].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص٣١٨).
(٢) تقدم ص١٩، هامش (٢).
(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٣/٢٥٩/ح ٣٤٨٠).
(٤) شعب الإيمان للبيهقي (٣/٢٥٩/ح ٣٤٧٩).
(٥) شعب الإيمان للبيهقي (٣/٢٦٣/ح ٣٤٩٢).

٩- عن ربيع بن خثيم أنه قال لأهله: "اصنعوا لنا خبيصاً [١]، فصنع فدعا رجلاً كان به خبل فجعل يلقمه ولعابه يسيل فلما أكل وخرج، قال له أهله: تكلفنا وصنعنا ثم أطعمته ما يدري هذا ما أكل، قال الربيع: لكن الله يدري[٢].

١٠- عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب فأرسلت صفية امرأته بدرهم فاشترت عنقوداً بدرهم واتبع الرسول سائل فلما أتى الباب ودخل قال السائل: السائل، قال ابن عمر أعطوه إياه فأعطوه إياه، ثم أرسلت بدرهم فاشترت به عنقوداً فاتبع الرسول السائل فلما انتهى إلى الباب ودخل قال السائل: السائل. قال ابن عمر أعطوه إياه فأعطوه إياه فأرسلت صفية إلى السائل فقالت والله لئن عدت لا تصيب مني خيراً أبداً ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به [٣].

١١- حكي أن بشر بن الحارث أتاه رجل في مرضه الذي توفي فيه، فشكا إليه الحاجة فنزع بشر قميصه الذي كان عليه، فأعطاه إياه، واستعار قميصاً مات فيه [٤].

١٢- روي أنه اجتمع عند أبي الحسن الأنطاكي نيف وثلاثون رجلاً لهم أرغفة لا تكفيهم شبعاً، فكسروها وأطفأوا السراج، وجلسوا للأكل فلما رفعت السفرة فإذا الأرغفة بحالها لم ينقص منها شيء لأن أحداً

---

(١) الخَبِيصُ: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن، والجمع أخبصة. انظر المعجم الوسيط (٢١٦/١).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢٦٣/٣/ح٣٤٩١).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٢٦٠/٣/ح٣٤٨١).

(٤) منهاج المسلم ص١٦٢.

منهم لم يأكل إيثاراً للآخرين على نفسه حتى لم يأكلوا جميعاً، وهكذا آثر كلٌّ منهم غيره، فكانوا من أهل الإيثار جميعاً [١].

هذه بعض الصور الوضاءة الصادقة التي تبرز ملامح إيثار المؤمنين على أنفسهم، وتقديم غيرهم عليهم من إخوانهم على الرغم من حاجتهم وشظفهم، تلك المشاهد جاءت في أبهى صور الإيثار وأسماه، ذكرتها لتطّلع عليها أخي المسلم، فتحتذي حذوها، وتتأسى بها، والسعيد من دله يسير الكلام على حقيقة منهج أصحاب النبي ﷺ.

الثاني: الإيثار المذموم.

هو كل إيثار يؤدي إلى إتلاف بقصد لا يجوز في الدين مثل أن تؤثر غيرك بمالك وتَقْعُدَ كَلاًّ مضطراً، مستشرفاً للناس أو سائلاً، وكذلك الإيثار بما يفسد عليك قلبك ووقتك وحالك مع الله، فهذا إيثار غير محمود، يُذمُّ به صاحبه عند الله وعند الناس، ومن أمثلة هذا النوع ما يلي:

أ- الإيثار بالقربات والطاعات.

لم يجعل الشارع الحكيم الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلاً للتنافس والمسابقة فلذا قال العلاّمة ابن رجب الحنبلي في كتابه "لطائف المعارف" [٢]: "لما سمع الصحابة رضي الله عنهم قول الله عز وجل ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ [٣]، وقوله تعالى ﴿**وسابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها**

---

(١) منهاج المسلم ص١٦٢.

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي (ص٢٦٠-٢٦١).

(٣) سورة البقرة، آية ١٤٨.

كعرض السماء والأرض﴾ [١]، فهموا المراد من ذلك أن يجتهد كل واحد منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية فكان أحدهم إذا رأى من يعمل عملاً يعجز عنه خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له فيحزن لفوات سبقه، فكان تنافسهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها، كما قال تعالى **﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾** [٢]، ثم جاء من بعدهم فَعُكِسَ الأمر فصار تنافسهم في الدنيا الدنية وحظوظها الفانية.

- قال الحسن: "إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة.

- وقال وهيب بن الورد: "إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل".

- وقال بعض السلف: "لو أن رجلاً سمع بأحد أطوع لله منه كان ينبغي له أن يحزنه ذلك".

- وقال غيره: "لو أن رجلاً سمع برجل أطوع لله منه فانصدع قلبه فمات لم يكن ذلك بعجب".

- وقال رجل لمالك بن دينار: "رأيت في المنام منادياً ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل فما رأيت أحداً يرتحل إلا محمد بن واسع، فصاح مالك وغُشيَ عليه. **﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم﴾**.

صاحب الهمة العالية والنفس الشريفة التواقة لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنى ولا يرجع

(١) سورة الحديد، آية ٢١.

(٢) سورة المطففين، آية ٢٦.

عن مطلوبه ولو تلفت نفسه في طلبه، ومن كان في الله تَلَفه كان على الله خَلَفَه.

قيل لبعض المجتهدين في الطاعات: "لِمَ تعذب هذا الجسد؟ قال: كرامته أريد.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام [١]

- قال عمر بن عبدالعزيز إن لي نفساً تواقة ما نالت شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه وإنها نالت هذه المنزلة يعني الخلافة وليس في الدنيا منزلة أعلى تاقت إلى ما هو أعلى من الدنيا يعني الآخرة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم [٢]

فقيمة كل إنسان ما يطلب، فمن كان يطلب الآخرة فقدره خطير لأن الآخرة خطيرة شريفة، ومن يطلبها أشرف منها" ا.هـ.

وصح عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حَبْواً**» [٣].

قال النووي رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث: "النداء هو الأذان والاستهام الاقتراع، ومعناه لو علم الناس فضل الأذان وقدره وعظيم جزائه ثم لم يجدوا طريقاً يحصلونه به لضيق الوقت عن أذان بعد أذان، أو لكونه لا يؤذن للمسجد إلا واحد لاقترعوا في تحصيله، ولو يعلمون ما في الصف الأول

---

(١) البيت للمتنبي كما جاء في كتاب "أدب الدنيا والدين" للماوردي، ص٢٣٩.

(٢) وهذا البيت للمتنبي أيضاً.

(٣) رواه البخاري (٦١٥) ومسلم (٤٣٧) و (١٩١٤) وغيرهما وورد بلفظ «لو تعلمون ما في الصف الأول ما كانت إلا قرعة» صحيح الجامع (٥٢٦٤).

من الفضيلة نحو ما سبق وجاءوا إليه دفعة واحدة وضاق عنهم ثم لم يسمح بعضهم لبعض به لا قترعوا عليه" [١].

فخلاصة ذلك أن القرعة إنما تكون عند التنافس لا عند الإيثار، ولهذا قال ابن القيم في مدارج السالكين [٢]: "قال الفقهاء عن الإيثار بالقُرَب: مكروه أو حرام كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثر بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه، ويرفعه عليه فيفوز به دونه. وتكلموا في إيثار عائشة رضي الله عنها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بدفنه عند رسول الله ﷺ في حجرتها.

وأجابوا عنه بأن الميت ينقطع عمله بموته وبقربه، فلا يتصور في حقه الإيثار بالقرب بعد الموت، إذ لا تقرب في حق الميت، وإنما هو إيثار بمسكن شريف فاضل لمن هو أولى به منها، فالإيثار به قربة إلى الله عز وجل للمؤثر"ا.هـ.

وقال ابن القيم رحمه الله في "طريق الهجرتين" [٣]: قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات والسر فيه -والله أعلم- أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المُؤْثِر والمُؤْثَر، بل لا يسع إلا أحدهما، وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلوا اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم، وإن قدر التزاحم في عمل واحد أو مكان أو لا يمكن أن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٤/١٥٧-١٥٨) باختصار شديد.

(٢) مدارج السالكين (٢/٢٨٤).

(٣) طريق الهجرتين، ص٣٠٦.

يفعله الجميع -بحيث إذا فعله واحد فات على غيره- فإن في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث، فإذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه: إما مساوٍ له، وإما أزيد، وإما دونه. فمتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه، فجمع له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقال ابن القيم رحمه الله في "الروح" [(١)]: "وأما قولكم الإيثار بسبب الثواب مكروه وهو مسألة الإيثار بالقرب فقد أجيب عنه بأجوبة:

الجواب الأول: أن حال الحياة حال لا يوثق فيها بسلامة العاقبة لجواز أن يرتد الحي فيكون قد آثر بالقربة غيرها وهذا قد أمن بالموت، فإن قيل والمهدي إليه أيضاً قد لا يكون مات على الإسلام باطناً فلا ينتفع بما يهدى إليه وهذا سؤال في غاية البطلان، فإن الإهداء من جنس الصلاة عليه والاستغفار له والدعاء له فإن كان أهلاً وإلا انتفع به الداعي وحده.

الجواب الثاني: أن الإيثار بالقرب يدل على قلة الرغبة فيها والتأخر عن فعلها فلو ساغ الإيثار بها لأفضى إلى التقاعد والتكاسل والتأخر، بخلاف إبداء ثوابها فإن العامل يحرص عليها لأجل ثوابها لينتفع به أو ينفع به أخاه المسلم فبينهما فرق ظاهر.

الجواب الثالث: أن الله سبحانه وتعالى يحب المبادرة أو المسارعة إلى خدمته والتنافس فيها، فإن ذلك أبلغ في العبودية، فإن الملوك تحب المسارعة والمنافسة في طاعتها وخدمتها، فالإيثار بذلك منافٍ لمقصود العبودية، فإن الله

---

(١) الروح، ص١٢٩-١٣٠.

سبحانه أمر عبده بهذه القربة إما إيجاباً وإما استحباباً، فإذا آثر بها ترك ما أمره وولاه غيره، بخلاف ما إذا فعل ما أمر به طاعة وقربة، ثم أرسل ثوابه إلى أخيه المسلم، وقد قال تعالى ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض**﴾ [(١)]، وقال ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ [(٢)]، ومعلوم أن الإيثار بها ينافي الاستباق إليها والمسارعة.

وقد كان الصحابة يسابق بعضهم بعضاً بالقرب، ولا يؤثر الرجل منهم غيره بها، قال عمر: "وا لله ما سابقني أبوبكر إلى خير إلا سبقني إليه ... حتى قال وا لله لا أسابقك إلى خير أبداً" [(٣)].

وقد قال تعالى ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ [(٤)]، يقال نافست في الشيء منافسة ونفاساً إذا رغبت فيه على وجه المباراة، ومن هذا قولهم شيء نفيس أي هو أهل أن يتنافس فيه ويرغب فيه، وهذا أنفس مالي أي أحبه إليَّ وأنفسني فلان في كذا أي أرغبني فيه، وهذا كله ضد الإيثار به والرغبة عنه"ا.هـ.

ب- الإيثار بالوقت المصروف في الطاعات:

اعلم -رحمك الله- أن الزمان أشرف من أن يُضَيَّعَ منه لحظة، ويرجع شرفه إلى أنه وعاء لكل عمل وكل إنتاج، فهو في الواقع رأس المال الحقيقي

---

(١) سورة الحديد، آية ٢١.

(٢) سورة البقرة، آية ١٤٨.

(٣) تقدم ص٢١، هامش ٢.

(٤) سورة المطففين، آية ٢٦.

للإنسان فرداً أو مجتمعاً، فإن الفلاح كل الفلاح في الشح به، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً. فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومن نظر في سير السلف الصالح وأحوالهم اتضح وبان له كم كانوا يحرصون على أوقاتهم.

- عن قتادة قال: قال أبوالدرداء: "ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل تكون قبرك، ابن آدم إنما أنت أيام فكلما ذهب يوم ذهب بعضك، ابن آدم إنك لم تزل في هرم عمرك منذ يوم ولدتك أمك" ا.هـ. (١)

- وقال الحسن البصري: "أدركت أقواماً كل أحدهم أشح على عمره منه على درهمه" (٢).

- وقال أيضاً: "يا ابن آدم اليوم ضيفك، والضيف مرتحل يحمدك أو يذمك وكذلك ليلتك" (٣).

- وروى ابن أبي الدنيا «بإسناده عن بكر المزني أنه قال: "ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا ينادي: ابن آدم اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي، ولا ليلة إلا تنادي: ابن آدم اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي" (٤).

- وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: "إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شراً فيوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثلُ ما زرع لا يسبق بطيء بحظه، ولا يُدْرك حريص ما لم يقدِّر له" (٥).

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٣٨١/٧/ح١٠٦٦٣.

(٢) شرح السنة للبغوي (٢٢٥/١٤).

(٣) غذاء الألباب للسفاريني (٤٤٩/٢).

(٤) غذاء الألباب للسفاريني (٤٤٩/٢).

(٥) الفوائد، ص٢٦١.

- وقال الرازي: "وسمعت علي بن أحمد الخوارزمي: يقول: سمعت عبدالرحمن ابن أبي حاتم يقول: "كنا بمصر سبعة أشهر، لم نأكل فيها مرقة، كُلُّ نهارنا مُقَسَّم لمجالس الشيوخ، وبالليل النسخ والمقابلة، قال: فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكاً أعجبنا، فاشتريناه، فلما صرنا إلى البيت، حضر وقت مجلس، فلم يمكنا إصلاحه، ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغير، فأكلناه نَيْئاً، لم يكن لنا فراغٌ أن نعطيه من يشويه، ثم قال: لا يُستطاع العلم براحة الجسد[1].

- ورحم الله الوزير الفقيه يحيى بن محمد بن هُبيرة -شيخ ابن الجوزي- إذ يقول:

والوقت أنْفَسُ ما عُنِيتَ بحفظه وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ [2]

- ويقول ابن الجوزي عن نفسه رحمه الله: "لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس ومالا يعني، ويتخلله غيبة. وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوّق إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٦٦/١٣).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢٨١/١) نقلاً عن سوانح وتأملات في قيمة الزمن (ص٣٩) نقلاً عن أين نحن من أخلاق السلف (ص١٣١، ١٣٢).

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غُلبت قصَّرت في الكلام لأتعجل الفراق.

ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من المستعَدِّ للقائهم قطع الكاغد [١]، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي" [٢].

فإذا كان هذا هو حرص سلفنا الصالح على الوقت وتقدير قيمته وخطره، فإن مما يدمي القلب ما نراه اليوم عند المسلمين من إضاعة للأوقات فاقت حد التبذير إلى التبديد، والحق أن السفهَ في إنفاق الأوقات أشد خطراً من السفهَ في إنفاق الأموال، فالوقت إذا ضاع لا عوض له، لذا يجب على المسلم أن يحافظ على وقته، وأن يحرص على الاستفادة منه فيما ينفعه ولا يؤثر به أحداً، فإن آثر به أحداً وقع في إيثار لا يُحْمد عند الله.

جـ- إيثار الدنيا على الآخرة.

صاحب هذا النوع من الإيثار من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، إذْ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية.

---

(١) الكاغد: الورق المعد للكتابة.

(٢) صيد الخاطر (ص٢٠٩، ٢١٠).

ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال:

أحلام نومٍ أو كظِلٍ زائلٍإنَّ اللبيبَ بِمثلها لا يُخْدَعُ [(١)]

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يتمثل كثيراً ويقول:

يا أهلَ لذَّاتِ دُنيا لا بَقَاءَ لَهَا إن اغتراراً بظلٍّ زائلٍ حُمْقُ [(٢)]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يصف الدنيا: "أولها عناء، وآخرها فناء حلالها حساب، وحرامها عقاب، من صحَّ فيها أمن، ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فُتِن، ومن افتقر فيها حَزِن، ومن سَاعَاهَا فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن نظر إليها أعمته، ومن نظر بها بَصَّرته" [(٣)].

وقال وهب بن منبه: "مثل الدنيا والآخرة مثل ضَرَّتين: إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى" [(٤)].

وأشبه الأشياء بالدنيا السراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب.

فمن كان يطلب الدنيا، فلا أدنى منه فإن الدنيا دنية وأدنى منها من يطلبها وهي خسيسة وأخس منها من يطلبها، فلا يؤثرها على الآخرة إلا من كان عنده فساد في الإيمان أو فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، وقد توعَّد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بها واطمأن وغفل عن آياته ولم يَرْجُ

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٢٠١).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٢٠١).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص٧٨).

(٤) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص٧٨).

لقاءه، فقال جل شأنه: ﴿**إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون**﴾ (١).

وعيَّر سبحانه وتعالى من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**﴾ (٢).

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

فطالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شُرْباً ازداد عطشاً، وكان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يتمثل بهذه الأبيات (٣):

نهارُك يا مغرور سَهْوٌ وغَفْلةٌ ... وليلُك نومٌ والأسى لك لازمُ
تُسَرُّ بما يفنى وتفرحُ بالمُنى ... كما سُرَّ باللذات في النوم حالِمُ
وشُغْلُك فيما سوف تكره غِبَّة ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

وحب الدنيا وإيثارها يكون بسبب زينتها وزخرفتها بالمال والبنين قال تعالى: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً**﴾ (٤).

---

(١) سورة يونس، آية ٧،٨.
(٢) سورة التوبة، آية ٣٨.
(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص٨٠).
(٤) سورة الكهف، آية ٤٦.

وقد سيق هذا كما قال العلامة الشنقيطي رحمه الله لا على سبيل الإخبار بالواقع فحسب بل إن من ورائه ما يسمى بلازم الفائدة، وهو ذم من كان هذا حاله [1].

وقد كثر في القرآن الكريم الإشارة إلى ذم من قدّم الدنيا على أمر دينه وأخراه مثل قوله تعالى: ﴿**تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة**﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى**﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿**كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة**﴾ [4].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمات، ولنأخذ آية واحدة مما سبق تدلنا على المقصود ونتعرض لتفسيرها من كلام علمائنا الأجلاء وهي قوله تعالى: ﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا**﴾.

قال أبو حيَّان في "البحر المحيط" [5]: "قرأ الجمهور بل تؤثرون بتاء الخطاب للكفار، وقيل خطاب للبر والفاجر يؤثرها البرُّ لاقتناء الثواب والفاجر لرغبته فيها".

وقال البغوي في "معالم التنزيل" [6]: "قال عِرفجة الثقفي: استقرأت ابن مسعود ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ -فلما بلغ- **بل تؤثرون الحياة الدنيا**﴾ ترك

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي (١٨٢/٩).

(٢) سورة الأنفال، آية ٦٧.

(٣) سورة الأعلى، آية ١٦، ١٧.

(٤) سورة القيامة، آية ٢٠، ٢١.

(٥) البحر المحيط لأبي حيان (٤٦٠/٨).

(٦) معالم التنزيل للبغوي (٤٠٣/٨) وابن كثير في تفسيره (٥٣٥/٤) وقال ابن كثير معلقاً على هذا القول: "وهذا منه على وجه التواضع والهضم أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو. والله أعلم" ا.هـ.

القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم فقال آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل".

وقال الشنقيطي في "أضواء البيان" [(١)]: "قرئ ﴿**تؤثرون**﴾ بالتاء والياء راجعاً إلى ﴿**الأشقى الذي يصلى النار الكبرى**﴾، وعلى أنها بالتاء للخطاب أعم وحيث أن هذا الأمر عام في الأمم الماضية ويذكر في الصحف الأولى كلها عامة، وفي صحف إبراهيم وموسى، مما يدل على خطورته وأنه أمر غالب على الناس وقد جاءت آيات دالة على أسباب ذلك منها الجهل وعدم العلم بالحقائق كما في قوله تعالى: ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾ أي الحياة الدائمة".

فكن على حذر من الدنيا، فإنها تُلْهيك عن آخرتك، وتوقَّ الركون إليها فإنها رأس الخطايا ومفسدة للدين عظيمة، واعلم أن قسوة القلب وطول الأمل والتسويف هي العوامل الأساسية والمغذية لهذا النوع من الإيثار، وأن الخشية والذكر هي العوامل الأساسية والمغذية لإيثار الآخرة، وتدبر هذه الآيات الكريمات:

﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**﴾ [(٢)].

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٩/١٨٠/١٨١).

(٢) سورة الأعراف، آية ١٧٩.

وقوله تعالى: ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا**﴾ (٢).

تجد التحذير من الغفلة، والإدانة لمن يهتم بظاهر العلم دون حقيقته ولبه، والإشارة إلى مرض القلب بحيث يفقد صاحبه الحس الواعي بالأحداث. فالحذر ... الحذر من مغبة هذا الإيثار والموفق من وفقه الله تعالى.

---

(١) سورة الروم، آية ٦، ٧.

(٢) سورة الكهف، آية ٢٨.

فضائل الإيثار

١- الإيثار خلق الفضل في الإسلام:

الإيثار أعلى درجات السخاء، أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة الله تعالى مقدمة على شهوات النفس ولذاتها. ومن رزق الإيثار فقد وقي شح نفسه ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقي العبد شح نفسه سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً منشرحاً بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس تدعو إليه وتتطلع إليه وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، وهذا الخلق صار علَماً على الأنصار حيث أنهم فاقوا به غيرهم وتميزوا به عمن سواهم، ولأجل عظيم أثره، وشرف قدره أثنى الله على الأنصار فقال جل شأنه: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ [1].

٢- الإيثار خلق الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام:

فإيثار رضا الله عز وجل على غيره ولو أغضب الخلق هو درجة الأنبياء وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه وأعلاها لأولي العزم منهم، فإبراهيم عليه السلام سأل ربه الولد الصالح فوهب له إسماعيل عليه السلام

---

(١) سورة الحشر، آية ٩.

فامتحنه الله بذبحه، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن استسلم لأمر ربِّه فأقدم على ذبح ولده -الذي رُزِق به على كِبَر وهو وحيده حينذاك- إيثاراً لمحبة الله على محبة الولد فكافأه الله بأن فداه بذبح عظيم قال تعالى: ﴿**وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين، رب هب لي من الصالحين، فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاءُ المبين، وفديناه بذبح عظيم**﴾ [١].

ويقول ابن القيم في كتابه "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"[٢]: "لم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده، حصل المقصود فرفع الذبح وفدى الولد بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً، بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء، وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدي المناجاة وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها، وقال ﴿**ما يبدل القول لديَّ**﴾ وهي خمس في الفعل وهي خمسون في الأجر".

وقد حاز نبينا ﷺ على أعلى هذه الدرجة؛ فإنه قاوم العالم كله وتجرَّد للدعوة واحتمل عداء القريب والبعيد في الله تعالى، بل كان همّه وعزمه وسعيه كله مقصور على إيثار مرضاة الله حتى ظهر دين الله على كل دين وقامت حجته على العالمين، وتمت نعمته على المؤمنين وبلغ الرسالة وأدى

---

(١) سورة الصافات، الآيات ٩٩-١٠٧.

(٢) "الجواب الكافي من سأل عن الدواء الشافي" ابن القيم (ص٢٢٧).

الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، وعبدا لله حتى أتاه اليقين من ربه، فلم يَنَلْ أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما ناله صلوات الله وسلامه عليه.

٣- الإيثار يُكسب العبد رفعة في الدنيا والآخرة:

يكتسب المتصف بهذا الخلق جميل الذكر في الدنيا -حيث إن القلوب جُبِلت على تعظيم من يؤثرها- وجزيل الأجر في الآخرة مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله. فهو يعلم عن يقين أن ما يقدمه اليوم يجده غداً هو خيراً وأعظم أجراً فهو دوماً يتدبر كتاب الله تعالى فتقع عينه ويتأثر قلبه بمثل آيات المزمل وفاطر قال تعالى: ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً**﴾ [(١)]، وقال تعالى: ﴿**إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور**﴾ [(٢)].

فيحتقر الدنيا ويزدريها، ويصطفي الآخرة ويختارها، ويقبل على الله عز وجل فيؤثر رضاه سبحانه وتعالى على رضا غيره، والموفق من وفقه الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة المزمل، آية ٢٠.

(٢) سورة فاطر، الآيات ٢٩-٣٠.

٤- الإيثار هو النهاية في الأُخُوَّة.

آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أيَّ زوجتيَّ هويت، نزلت لك عنها، فإذا حلَّت، تزوجتها.

قال: فقال له عبدالرحمن بن عوف: بارك الله لك في أهلك ومالك لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع.

قال: فغدا إليه عبدالرحمن، فأتى بأقِط [١] وسَمْنٍ.

قال ثم تابع الغُدُوَّ، فما لبث أن جاء عبدالرحمن عليه أثر صفرة [٢].

فقال رسول الله ﷺ: تزوجت؟

قال نعم.

قال: ومن؟

قال امرأة من الأنصار.

قال: كم سُقْتَ؟.

قال: زنة نواة من ذهب [٣] - أو نواة من ذهب.

فقال له النبي ﷺ: **«أولم ولو بشاة»** [٤].

إنها الأخوة في الله.

---

(١) الأقِط: لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويُطْبخ، أو يطبخ به. المعجم الوسيط (٢٢/١).

(٢) المراد بالصفرة سفرة الخلوق، والخلوق طيب يصنع من زعفران وغيره قاله الحافظ ابن حجر في الفتح كتاب النكاح (١٤٢/٩).

(٣) وزن نواة بنصب النون على تقدير فعل أي أصدقتها، ويجوز الرفع على تقدير مبتدأ أي الذي أصدقتها هو. قاله الحافظ ابن حجر في الفتح كتاب النكاح (١٤٢/٩).

(٤) رواه البخاري (٣٣٧/٤/ح٢٠٤٨) كتاب البيوع.

إن التمسك بحبل الله تعالى ينقي القلوب، ويجعلها تتطلع إلى السماء، يجعلها تنظر للآخرة، يجعلها تسير في درب الإيثار وطريق التضحية وسبيل الوفاء والبذل والعطاء دونما كلل أو تعب.

إنهم مع حبهم ووفائهم لزوجاتهم يقدمون حب الله على حب نسائهم، إنهم مع هذا الحب الجم يؤثرون رضوان الله على هذا الود.

إنهم مع رقة مشاعرهم وصدق أحاسيسهم ووفائهم لنسائهم يؤثرون إخوانهم وأحبابهم طمعاً فيما عند الله تبارك وتعالى.

نفوس عفيفة نقية طاهرة لا تحمل في قلبها حقداً ولا حسداً.

لقد سجَّل هذان الصحابيان الجليلان مواقف مضيئة في صفحات التاريخ ستظل تشرق في النفوس فتحفزها على الإيثار والوفاء والعمل الطيب والتوكل على الله تعالى، فبأيٍّ منهما تشبهت أفلحت بإذن الله تعالى.

كيف يُكْتَسبُ الإيثار [(١)]

لو كانت الأخلاق صفات لازمة تخلق في الإنسان ويطبع عليها، فلا يمكنه تغييرها ولا تبديلها ولا تعديلها كسائر صفاته الجسدية من طول وقصر ولون، لما أمر الشرع بالتخلق بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن القبيحة، فلو لم يكن ذلك مُمْكِناً مقدوراً للإنسان لما ورد به الشرع؛ لأنه "لا تكليف إلا بمقدور" و "لا تكليف بمستحيل"، ولو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير -كما يرى البعض- [(٢)] لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، وكيف يُنكر هذا في حق الآدمي، وتغيير خلق البهيمة ممكن، قال تعالى: **﴿قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسَّاها﴾** [(٣)].

---

(١) مستفاد من رسالة "الحياء خلق الإسلام" لأخينا الفاضل الشيخ محمد إسماعيل (ص٦٦، ٦٨) وكتاب "طريق الهجرتين" للإمام ابن القيم رحمه ا لله (ص٢٨٤، ٢٨٥) بتصرف.

(٢) فقد قالوا أن حسن الخلق غريزة وتمسكوا بحديث ابن مسعود «إن ا لله قَسَّم بينكم أخلاقكم كما قسَّم بينكم أرزاقكم» وهو عند البخاري في "الأدب المفرد" تحت رقم (٢٧٥) وهو جزء من حيث طويل قال عنه الشيخ الألباني في "صحيح الأدب المفرد" تحت رقم (٢٠٩): صحيح موقوف في حكم المرفوع. والحقيقة أن الأخلاق فيها ما هو جبليٌّ وما هو مكتسب ولذا قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/٤٧٤): "وقع في حديث الأشج العصري عند أحمد والنسائي والبخاري في "الأدب المفرد وصححه ابن حبان أن النبي ﷺ قال: «إن فيك لخصلتين يحبهما ا لله: الحلم، والأناة. قال: يارسول ا لله، قديماً كانا فيَّ أو حديثاً؟ قال: قديماً. قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما» فترديده السؤال وتقريره عليه يُشْعر بأن في الخلق ما هو جبلي، وما هو مكتسب" ا.هـ.

(٣) سورة الشمس، آية ٩، ١٠.

وقال ﷺ: **«إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يُعْطه، ومن يتوق الشر يوقه»** (١).

وهذا يدلنا على أن تزكية الأفعال تكون بمباشرة الأعمال المحققة لزكاة النفس وتطهيرها، وليس بمجرد العلم النظري، ولكن الناس يتفاوتون في مقدار أهليتهم وقدرتهم واستعدادهم لاكتساب الأخلاق أو تعديلها، فمن جُبل على خلق معين يسهل عليه ترسيخ هذا الخلق في نفسه؛ لأن فطرته تعينه عليه، وفيما يتعلق بخلق الإيثار فإليك بعض الوسائل التي تعين على اكتساب الإيثار وترسيخه:

أولاً: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره.

ثانياً: مقت الشح، فإن العبد إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار فإنه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار.

ثالثاً: تعظيم الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم على بعض، فإن عظمت الحقوق عنده قام بواجبها ورعاها حق رعايتها واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها.

رابعاً: المواظبة على تكلف الإيثار مرة بعد مرة حتى تألفه النفس وتعتاده ويصير لها طبعاً وسجية، وهذا يستلزم التجمل بالصبر كالمريض الذي يصبر على تعاطي الدواء المر.

---

(١) الصحيحة رقم (٣٤٢) للشيخ الألباني وحسَّنه.

خامساً: إدمان مطالعة فضائل الإيثار، وترديدها على القلب، وجمع الهمة على تحصيل الإيثار، والسعي الحثيث في التحلي به.

سادساً: المواظبة على العبادات والطاعات المفروضة والمندوبة كالصلاة التي قال تعالى في شأنها: ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ [١]، وقد قيل لرسول الله ﷺ: (إن فلاناً يصلي الليل كله، فإذا أصبح سرق!) فقال ﷺ: «**سينهاه ما تقول**» أو قال: «**ستمنعه صلاته**» [٢]. وكالزكاة التي قال سبحانه فيها: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ [٣].

سابعاً: لزوم الصدق وتحريه، وتجنب الكذب؛ لأن الصدق يهدي إلى البر، قال ﷺ: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة**» [٤] والإيثار من جملة البر.

ثامناً: استحضار إيثار المثل الأعلى للبشرية رسول الله ﷺ، ومطالعة سيرته العطرة وشمائله الكريمة، ثم استحضار إيثار الصحابة رضوان الله عليهم، ثم استحضار إيثار من تبعهم من أهل العلم والإيمان.

تاسعاً: تقوية رابطة الأخوة في الله التي تولد في نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة في اتخاذ مواقف إيجابية من التعاون والإيثار والرحمة والعفو عند المقدرة.

---

(١) سورة العنكبوت، آية ٤٥.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/٤٤٧) وصححه ابن حبان (٦٣٩ موارد) وقال الهيثمي في "المجمع": "رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح (٢/٢٥٨).

(٣) سورة التوبة، آية ١٠٣.

(٤) رواه البخاري في الأدب رقم (٦٠٩٤) ومسلم رقم (٢٦٠٦) وغيرهما.

عاشراً: النفرة من أخلاق اللئام والتحول إلى الصحبة الصالحة؛ لأن الطباع سراقة وفي حديث قاتل المائة أن العالم قال له" ..... ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء...." الحديث[1]. أمره باعتزال بيئته الفاسدة التي تصد عن الخلق الحسن والتحول إلى الصحبة الصالحة التي تعينه على الخير.

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الأنبياء (٣٤٧٠) ومسلم في التوبة (٢٧٦٦) وغيرهما.

الخاتمة

"رزقنا الله الحسنى وزيادة"

اعلم أخي في الله -علمني الله وإياك- أن خُلُقَ الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق ترنو إليه أبصار المتنافسين في التخلق به، وتهوى إليه أفئدة المتسابقين إلى فعل الخيرات والحرص عليها؛ فالأعمال ما هي إلا نتائج الأخلاق، ومن امتلأ صدره بالأنوار الإلهية فاضت على مظاهره جمال الآداب النبوية.

فهذه جملة خيرات خلق الإيثار جمعتها -قدر استطاعتي- فاحرص أخا الإيمان أن تنتظم في عقد من يتحلون بهذا الخلق الجميل حتى تحظى برضوان الله، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. ونستغفر الله عز وجل من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافق أعمالنا، ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بباب الإيثار مع التقصير فيه، ونسأله جل شأنه أن يجعلنا بما علمناه عاملين ولوجهه مريدين، وألا يجعله وبالاً علينا، وأن يضعه في ميزان الصالحات إذا رُدَّت أعمالنا إلينا، إنه جواد كريم.

اللهم تفضل علينا بالجنة، وإن لم نستحقها، وخلصنا من النار، وإن استوجبناها اللهم آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع الرسالة مرتبة على الحروف

١- أحكام القرآن للجصاص.

٢- إحياء علوم الدين للغزالي - تحقيق العراقي - مكتبة أسامة - القاهرة.

٣- أدب الدنيا والدين للماوردي - دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

٤- أضواء البيان للشنقيطي - عالم الكتب.

٥- الإيمان لأبي بكر بن شيبة - حققه وقدَّم له وخرَّج أحاديثه وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي.

٦- أين نحن من أخلاق السلف لعبدالعزيز بن ناصر الجليل وبهاء الدين فالح عقيل - مكتب الدراسات والتحقيق - دار طيبة - الرياض.

٧- البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم لأبي حيَّان الأندلسي - دار الفكر - بيروت.

٨- البداية والنهاية لابن كثير - الريَّان - القاهرة.

٩- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي للمباركفوري - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠- التعريفات للجرجاني - حققه وقَدَّم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري - دار الكتاب العربي - بيروت.

١١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار المعرفة - بيروت.

١٢- تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير لمحمد نسيب الرفاعي - مكتبة المعارف - الرياض.

١٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي - دار ابن الجوزي.

١٤- جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٥- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - ط دار الكتب العلمية.

١٦- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - لابن القيم - مؤسسة المكتبة الثقافية - بيروت.

١٧- الحياء خلق الإسلام لمحمد أحمد إسماعيل - دار طيبة - الرياض.

١٨- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري - دار مكتبة وليد الكعبة.

١٩- الروح لابن القيم - دار الرشد - الرياض - السعودية.

٢٠- زاد المعاد في هدي خير العباد حقق نصوصه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه شعيب الأرنؤوط - عبدالقادر الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢١- الزهد والرقائق لعبدالله بن المبارك بتحقيق وتعليق أحمد فريد - دار المعراج الدولية للنشر - الرياض.

٢٢- السلسلة الصحيحة للألباني - المكتب الإسلامي.

٢٣- سير أعلام النبلاء للذهبي - مؤسسة الرسالة - بيروت - أشرف على تحقيقه شعيب الأرناؤوط.

٢٤- شرح السنة للبغوي تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت.

٢٥- شرح العقيدة الطحاوية - خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني.

٢٦- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية لابن أبي العز الحنفي - تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة - مكتبة المعارف - الرياض.

٢٧- شعب الإيمان للبيهقي - تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٨- صحيح ابن ماجه للألباني - مكتب التربية العربي.

٢٩- صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني - المكتب الإسلامي.

٣٠- صحيح الأدب المفرد للألباني - دار الصديق - الجبيل - السعودية.

٣١- صحيح مسلم بترتيب محمد فؤاد عبدالباقي - دار الحديث - القاهرة.

٣٢- صحيح مسلم بشرح النووي - دار الكتاب العربي - بيروت.

٣٣- صحيح النسائي للألباني - مكتب التربية العربي.

٣٤- صفة الصفوة لابن الجوزي - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

٣٥- صيد الخاطر لابن الجوزي - دراسة وتحقيق محمد عبدالرحمن عوض - دار كاتب وكتاب.

٣٦- طريق الهجرتين لابن القيم - مكتبة المؤيد - الرياض.

٣٧- غذاء الألباب للسفاريني - مؤسسة قرطبة.

٣٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر - الريَّان - القاهرة.

٣٩- الفوائد لابن القيم - حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشير محمد عيون - مكتبة المؤيد - الرياض.

٤٠- في ظلال القرآن لسيد قطب - دار الشروق.

٤١- القاموس المحيط - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٤٢- لسان العرب لابن منظور - دار صادر - بيروت.

٤٣- لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي - دار الفتح - القاهرة.

٤٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٥- مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري ومعالم السنن للخطابي - تهذيب الإمام ابن القيم - تحقيق محمد حامد الفقي.

٤٦- مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري - دار ابن خزيمة.

٤٧- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة - دار القلم - بيروت.

٤٨- مدارج السالكين لابن القيم - دار الكتاب العربي - بيروت.

٤٩- المستدرك للحاكم - دار المعرفة - بيروت.

٥٠- المُسْتطرف من كل فن مُسْتظرف لشهاب الدين محمد الأبشيهي - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.

٥١- مسند الإمام أحمد بفهرس الألباني - المكتب الإسلامي.

٥٢- مسند الإمام أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر - مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة - توزيع دار المعراج الدولية للنشر - الرياض.

٥٣- معالم التنزيل للبغوي - دار طيبة - الرياض.

٥٤- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث لمجموعة من المستشرقين.

٥٥- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربي - القاهرة - اعتنى بنشره عبدالله ابن إبراهيم الأنصاري - طبع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي - قطر.

٥٦- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني.

٥٧- منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري - مكتبة دار التراث.

٥٨- الوقت في حياة المسلم للدكتور يوسف القرضاوي - دار الصحوة للنشر - القاهرة.



الفهـرس

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع الصفحة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com